

## موعد مع شمس لن تشرق

تيرانا

مدينة حُرمت من جمالها لتعيش في الروايات



● تيرانا تفاجئك كما لو أنها ليست جزءاً من أوروبا. حالها لا تسر. فهي من أفقر القرى هناك. وسيكون ارتباطها بالبلقان بارتباطه عبر التاريخ مؤشراً على اختلافها.



● زمن أنور خوجة هو زمن الفكرة الواحدة والرجل الواحد الذي سيج بالأسلاك الشائكة بلداً صار سكانه سجناء أديبين طوعاً وكرهاً. وبدلاً من أن تحررهم الاشتراكية العلمية وضعتهم في قفص كئيب اسمه البانيا.

جسراً صغيراً. ومن أجل أن يثبت مهارته في التصوير استغرق وقتاً طويلاً من أجل أن يلتقط صورتين. في تلك الأثناء لم يمر أحد كما يحدث عادة في المدن الأوروبية. قلت له "ألم تلاحظ أن ليس هناك أرنحام مسروري؟" قال "عدد السيارات قليل في البلد". تيرانا مدينة هادئة، يغلب عليها السكون في كل أنحاء. فإذا كان مركز المدينة لا يعمه الصخب فكيف هي الحال في الضواحي؟ يذهب الألبان إلى النوم مبكرين وليست لديهم عادة التلصص من خلف النوافذ. علينا أن نستعيد حكايات الأطفال. يُحيل إلي أن تيرانا لا تزال طفلة. إنها طفلة البلقان التي أدارت ظهرها للعالم.

قليل من ريفية تيرانا يتدثر بالكثير من مظاهر المدنية التي يسعى شبابها إلى الانغماس فيها بحثاً عن حياة معاصرة، تبدو الطريق إليها طويلة بسبب خراب، لا تبدو ملامحه واضحة

التي يسعى شباب تيرانا إلى الانغماس فيها بحثاً عن حياة معاصرة، تبدو الطريق إليها طويلة بسبب خراب، لا تبدو ملامحه واضحة. هو ذلك الخراب الذي تركته لمسة الأب الميت الذي لم يرته أحد. تيرانا ليست مدينة متصلة، لا تترايط أحيائها بعضها ببعض الآخر. إنها تكوين عشوائي مفكك. البيوت التي لا يبسو عليها ترف كثير في ضواحيها لا يلتصق بعضها ببعض الآخر. هناك مسافة واضحة تفصل بين البيت والآخر. اعتقد أنها مسافة نفسية. هل هو الخوف منعكسا على حياة سلوك جغرافي؟ قلت لحسونة المصباحي "التقط لي صورة على الجسر" وكان

في واحدة من مراحل حياته أو اتبع والده في تجارة القماش. تلك جملة لا قيمة لها. فالرجل صار اليوم جزءاً من تاريخ البانيا التي أخرجها من العصر العثماني ليدخلها إلى عصره. لقد فعل خوجة أشياء، فتحت أبواب العصر الحديث أمام بلاده. مساواة المرأة والتعليم والعناية الصحية. غير أنه في المقابل فعل أشياء أغلقت على باب أبواب العزلة، ما سبب لها الكتابة المزمنة. البانيا بجمال طبيعتها ونسائها بلد كئيب يحبها المرء لأنها بلد كئيب. كان إسما عليل كاداريه شقيقاً في البحث عن أسباب تلك الكتابة التاريخية. غير أن خوجة "لقب يعني الحاج" وقد طابت له فكرة أن يتسلل شخصياً

أنا في تيرانا ولا أصدق أن جيلاً من الشعراء الغاضبين كان يحلم بزيارتها باعتبارها أرضاً مقدسة. الحقل الذي ينم فيه عرق العمال والفلاحين فأكهة ذهبية. تفاجئك تيرانا كما لو أنها ليست جزءاً من أوروبا. حالها لا تسر. فهي من أفقر القرى هناك. سيكون ارتباطها بالبلقان بارتباطه عبر التاريخ مؤشراً على اختلافها. غير أن البانيا التي عاشت في ظل خوجة أكثر من أربعة عقود أنشأت أنفاقاً سرية لكتابة البلقان التي ستكون مصدر سحر في الكتابة والحكم على حد سواء.

مَنْ يَنْسَى ذَلِكَ الْأَب؟

ليس بالضرورة أن يكون البلد جميلاً لكي تحبه وباسر. البانيا ليست جميلة مثل نسائها. ولكن كيف حافظت المرأة الألبانية على جمالها في ظل كل تلك القسوة؟ سيضحك خوجة في قبره. فهو يعتبر ذلك أحد منجزاته. شيوخه عينة الخاصة تهب الجسد جملاً من نوع آخر. خوجة الذي لا يعرفه أحد يمكن التعرف عليه من خلال المباني التي لا تزال قائمة. وهي مباني الاشتراكية المتجهمة التي هي أشبه بالمعاقل. لا يمكنك أن تفرق بين المدرسة والمصنع والمكتبة والمعسكر والمقر الحزبي.

بنايات متشابهة تراها في كل مكان وعليك أن تتسأل عن وظيفتها. لم تكن لدى خوجة فكرة عن الخيال المعماري. كل الأبنية التي تعود إلى عصره وهي لا تزال ماثلة لا تفصح عن نزعة خيالية. فهي بالرغم من تحصنها بهيبة الدولة العنيفة لا تخفي سوقيتها وابتذالها الذي يذهب إلى نهاية الشارع كما لو أنه طفل معتوه يتباهى بعريه. إنها في أحسن الأحوال تصلح أن تكون سجناء. ربما كانت تلك الفكرة هي ما تروق لخوجة الذي لا يذكره أحد الآن.

"كما لو أنهم نسوه" أقول لنفسي بشيء من السخرية. "لا يُنسى الأب" أضيف بقدر من اللوعة. لو أنه استمر بائع تبغ وقد كانت مهنته

الذهاب المبكر إلى النوم

هناك جيل لا يعرف مَنْ هو خوجة. ليس هناك ما يُشير إليه. إسكندر بيك أكثر شهرة منه. تلك واحدة من الحكايات التي يمتزج فيها الوهم بالحقيقة. لا يكتفي التاريخ، غير أنه لا يؤكد مبالغاتها. تمثال إسكندر بيك يقع في وسط المدينة. هناك ساحة تحمل اسمه. في محيط تلك الساحة تنتشر المقاهي والحدائق والحانات والمطاعم والمخازن التجارية والنافورات وشوارع المشي المدينة التي هي ليست هي. قليل من ريفيتها يتدثر بالكثير من مظاهر المدنية

ولذلك فإن كل الوصف الخارجي قد يخونها. يخون حقيقة المدينة التي تجنبت الحروب عن طريق العزلة. وهو ما يمكن أن يُحسب لأنور خوجة لا عليه.

أين يختبئ الجمال؟

أمشي في دروب المدينة التي كانت تُسمى في الماضي مدينة المساجد ولا أرى أترا لتلك المساجد إلا في الضواحي. أربعون سنة من الحروب العقائدية المغلقة لم تبق شيئاً من العلاقة بالسماء.

لقد اكتشف الألبان أن الاتفاق التي أنشأها نظام خوجة استعداداً للحرب النووية لم يكن لها معنى. أما أن يصنعوا منها متاحف فهي فكرة لا تنطوي هي الأخرى على معنى من نوع ما. ولكن العبث الذي دمر علاقتهم بالسماء لا يزال قائماً بل ومهيماً على طريقة تفكيرهم.

كان من الممكن أن تكون تيرانا جميلة. ولكن كيف؟

لدى أدبيهم الكبير كاداريه أجوبة عديدة على سؤال من ذلك النوع. فهو قرأ تاريخ بلاده الصغيرة. عرفها مثلما يعرف باطن يده. الكثير من أحلامها لا تزال مخفية بين سطور رواياته. الألبان محظوظون إذ وهبهم القدر روائياً كبيراً هو مفاجأة قياساً لعدد السكان ومساحة البلاد. غير أن العبقريّة نقلت من المعايير الجاهزة. غير أن ما يمكن قوله إن بلداً مثل البانيا حُرمت من الحياة الطبيعية لعقود طويلة وهبته القدر كاتباً يلهمه حياة على الورق.

فاروق يوسف  
كاتب عراقي



ما بين الروائي إسما عليل كاداريه والزعيم أنور خوجة خصام الأدب والسياسة. غير أن كل واحد منهما صنع التاريخ بطريقته الخاصة. كل ما أراه من حولي في تيرانا كنت قد رأيته في أوقات سابقة، لكن عن طريق عيني الداخلية. لقد ألف كاداريه الحكاية التي أضفى خوجة عليها طابعاً لا ينتمي إلى زمن بعينه.

زمن خوجة هو زمن الفكرة الواحدة والرجل الواحد وهو زمن القسوة الذي سيج بالأسلاك الشائكة بلداً، صار سكانه سجناء أديبين طوعاً وكرهاً. بدلاً من أن تحررهم الاشتراكية العلمية وضعتهم في قفص كئيب اسمه البانيا. ذلك البلد الصغير الذي يمكن أن تمر به الطائرة من غير أن تشير إليه خراطها وضعه كاداريه على جدول انتظار جائزة نوبل من غير أمل في الحصول عليها غير أن أنور خوجة شكل نهاية ستينات القرن الماضي خرقاً في فهم الشيوعية الدولية وهو ما جعل البعض يرنو إلى الأفاق في انتظار أن تشرق شمس العدالة الأخيرة من تيرانا.



الألبان لدى أدبيهم الكبير كاداريه أجوبة عديدة على أسئلتهم. فهو قرأ تاريخ بلاده الصغيرة. عرفها مثلما يعرف باطن يده. الكثير من أحلامها لا تزال مخفية بين سطور رواياته

